نظرات فى تاريخ الاسلام

« وأشترط على نفسى أن لاأتعرض لذكر ما أعتمده فيما أجده مخالفا لما اعتقده ، فان التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد »

« فخر الدين الرازى »

(٣)

ومن ثم ترى أن الحزب المناوىء للاسلام لم يهدأ له بال حتى أخضع المدينتين المقدستين اخضاعا ، وحتى جعل مسجد المدينة اصطبلا ، وحرق الكعبة ، وأذل أبناء مؤسسى الاسلام إذ لالا وأرغم أنوفهم ارغاما .

ولقد دخلت تلك الفئة القليلة فى الاسلام مرغمة كارهة فى جملة من دخل فيه من العرب ، ثم عرفت فيما بعد كيف تدفع ثمن هذا النصر المضاعف ، غاليا .

وما كان عصر بنى أمية كله إلا انتقاضا وثورة على الاسلام وانتصارا للمبدأ الوثني

ولقد كان الخلفاء أنفسهم — اذا استثنينا الشاذ منهم — لا يأبهون للدين ، وان شئت فقل انهم كانوا من الجاحدين، الا ترى إلى أحدهم — وهو الوليد الثانى ، كيف يطوح به الاستهتار الى أبعد مدى ، وكيف يذهب الى صلاة الجماعة مصطحبا معه بعض محظياته ، وكيف يتخذ من المصحف هدفا له يخرقه بالنشاب (١)

---

(١) قالوا انه فتح المصحف ذات يوم فرأى فيه قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فغضب ومزق المصحف واهوى به الى الأرض وخرقه بالنشاب وهو يقول — :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل : يارب مزقنى الوليد

وتهتك الوليد واستهتاره مما لايحتاج الى تنويه ، وان تغالى أعداؤه فى اضافة شنع الى شنعه ونسبة مخاز الى مخازيه ، والوليد هو القائل لما أحاط الثائرون بقصره — :

ولقد كانوا لا يرحبون باسلام من يسلم من الأمم التى يخضعونها ؛ من مسيحي الشام وقبط مصر ، ومن الفرس و برابرة شمال أفريقيا ، وكانوا لا يهشون لاسلام هذه الشعوب نظراً لما يعرفونه من الباعث الحقيقى الذى يدفع جمهرتهم إلى التظاهر بالاسلام

دعوا لى « هندا » و « الرباب » و « فرتنى »

ومسمعة حسبى بـــذلك مالا

خـــذوا ملككم لاثبت الله ملككم

فليس يساوى بعد ذاك عقالا

وخلوا سبيلى « قبل عيروما جـــرى »

ولا تحسدونى ان أموت هـزالا

يريد بالبيت الأخير : « اتركوا لى هـذه الأشياء ثم خذوا الملك منى بعد ذلك فانى أتركه لكم فى الحال ولا يهمكم من أمرى شىء بعد وقوله « قبل عيروما جرى » مثل يضرب للسرعة

ولقـد كان الوليد متهتكا مستهترا يميل الى مراغمة الناس ويجاهرهم بعصيانه وآثامه واحتقاره ماتواضعوا على احترامه

قالوا : « وكان شجاعا شديد البطش طويل أصابع الرجلين وكان يوتد له سكة حديد فيها خيط ويشد الخيط فى رجله ثم يثب على الدابة فينتزع السكة ويركب دون أن يمس الدابة بيده »

***

حدث بعض الموالين للوليد فقال — :

كنت عند « هشام » وعنده الزهرى فذكر الوليد فتنقصاه وعاباه عيبا شديدا ولم أعرض فى شىء مما كانا فيه فاستأذن الوليد فأذن له — وأنا أعرف الغضب فى وجهه فجلس قليلا ثم قام

فلما مات هشام كتب فى فحملت اليه فرحب بى وقال :

« كيف حالك يا ابن ذكوان ؟ »

وكان مفروضاً على كل فرد لا يدين بالاسلام من الأمم المغلوبة فى البلاد التي فتحها المسلمون أن يدفع الجزية ، فاذا أسلم فقد أعفى من أدائها فى الحال . وكان هذا الاعفاء من أكبر أسباب الدعاية للاسلام ، وقد دخل ملايين من الناس فى دين

والطف المسألة ثم قال — :

أتذكر يوم الاحول ، هشام الخليفة ، وعنده الفاسق ، الزهرى ، وهما يعيبانى قلت أذكر ذلك فلم أعرض فى شىء مما كانا فيه ،

قال — : « صدقت أرأيت الغلام الذى كان على رأس هشام ؟ »

قلت : « نعم »

قال : « فانه نمى الى ماقالا ! وايم الله لو بقى الفاسق لقتلته »

قلت « قد عرفت الغضب فى وجهك حين دخلت ! »

ثم قال — :

« يا ابن ذكوان ! ذهب الأحول بعمرى ! »

فقلت :—

بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ، ويمتع الأمة ببقائك فدعا بالعشاء فتعشينا وجاءت المغرب فصلينا وتحدثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا ، وجلس قال : « اسقني » فجاءوا باناء مغطى وجاء ثلاث جوار فصففن بين يديه بيني وبينه ، ثم شرب وذهبن فتحدثنا

واستسقى فصنعن مثل ما صنعن أولا

فما زال على ذلك يتحدث و يستسقى و يصنعن مثل ذلك ، حتى طلع الفجر ، فأحصيت له سبعين قدحاً . »

***

نقول : « ولعل هذا من أعف مجالس الوليد ، ونحب أن لا ينسى القارىء أن راوى هذا الخبر ليس من أعداء الوليد ولا من المتحاملين عليه .

على أن للوليد أخبارا أخرى لاسبيل لنا إلى ذكرها فى هذ المقام لشناعتها وفحشها

الاسلام أفواجاً رغبة فى التخلص من دفع الجزية وكان لهذا الاعتبار أكبر الأثر فى اقبالهم على هذا الدين . وقد قلل ذلك من خراج الدولة ، ونقص من بيت المال . فقد وصل الخراج الذى يجبونه من مصر فى زمن عثمان نفسه إلى أكثر من ضعفه بعد وفاة « معاوية » بزمن يسير . بسبب تهافت قبط مصر على الاسلام . وكان بعضهم يقبل على الاسلام لأنه ممن لا يرون للدين فى نفوسهم خطراً ، وبعضهم يسلمون حباً فى المال وهرباً من الجزية ، وقد وضع الخلفاء قيوداً وشروطاً للدخول فى الاسلام . ورفض كثير منهم أن يعفى المسلمين الجدد من دفع الجزية محتجاً بأنهم لم يسلموا عن اخلاص ، وأن اسلامهم ليس إلا صورياً وأنهم لا يؤدون شعائر الاسلام .

وكان الخليفة عمر الثانى (١) هو الأمير الوحيد الذى كان مثالا للتقى وصحة التدين فلم يأبه للمال وكان قلبه عامراً بالايمان والتقوى . وقد بذل وسعه فى نشر الدعوة إلى الاسلام دون أن يعنى بزيادة الخراج الذى كان هم غيره الوحيد .

* * *

ولقد قال له بعض عماله : —

« إذا سارت الأمور فى مصر على هذه الوتيرة فسيصبح كل مسيحييها مسلمين ، وسنفقد بذلك كل الخراج ! »

فقال له عمر — :

« لو أسلم كل مسيحى فيها لكان ذلك أكبر سعادة تتطلع اليها نفسى ، فقد أرسل الله رسوله للناس هادياً ونبياً ، ولم يرسله اليهم ليجمع الخراج ويجبى الضرائب : »

ومن آيات استهتار الوليد بكل شىء مما تواضع الناس على احترامه ، ذهابه إلى صلاة الجمعة وهو سكران وارتجاله أرجوزة بدل خطبة الجمعة

وقد ذكر له أبو العلاء فى رسالة الغفران — كما ذكر له ابن القارح فى رسالته إلى أبى العلاء — شئنا يستطيع القارىء أن يرجع اليها ان شاء

ومن رأى أبى العلاء أن الوليد — مع استهتاره — ليس بدعا فى الخلفاء وأن له أشباهاً ، لا فرق بينهم وبينه إلا أنهم يستترون ويجاهر بعصيانه .

« المترجم »

(١) عمر بن عبد العزيز .

وبمثل هذا أجاب عامل خراسان أيضاً حينما شكا له اقبال الكثيرين من الفرس على الدين الاسلام لالشيء سوى رغبتهم فى التخلص من دفع الجزية ، وقال له: إنهم لا يختتنون أيضاً .

فأجابه الخليفة

إن الله قد أرسل محمداً هاديا للناس الى الطريق السوى ولم يرسله اليهم ليعلمهم الاختتان ،فهو لم يشددفى تنفيذ هذه الأمور بدقة لالأنه يجهل أن أكثر الداخلين فى الاسلام غير مخلصين فى ذلك ، ولكنه لأنه يعلم - وهو محق فيما ذهب اليه - أن أبناءهم وأحفادهم سينشأون فى مهد الاسلام ويكون منهم المسلمون الصادقون ، الذين قد يفوقون العرب أنفسهم فى الصلاح والتقوى . « للكلام بقية »

اطلب من دار المصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

تاريخ الفكر العربي

فى نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية